

إدريس فاتح... الكتابة بدم الوجه

تقديم الباحث والكاتب الصحفي محمد الخدادي



ليس أمرا بديهيا أن ينتزع طفل نشأ يتيم الأب مكانا له تحت الشمس، عاش الفقر المادي واكتوى بالفقد العاطفي، فكان عليه أن يقطع سنوات مسننة، كمن يمشي على لسان منشار، وأن يسخر من الفقر كي يروضه (ولو أن الأسرة لم تكن فقيرة فعلا بالمقاييس المحلية)، من أجل أن يرسم مساره على صخرة الحياة.

لعل هذا الزخم القاسي هو الذي جعل الكتابة تسعى إلى صاحبها طوعا وعشقا، بعدما ألم بأسرار الحروف، فكان هذا البوح بصوت عال، وبوجه مكشوف، بحروف خطت بدم الوجه من غير قناع بحياء زائف أو تقوى مصطنعة.

هي كتابة بلغة عارية في رونقها، تشبه نقش الحروف بالأظافر على صخرة الذات.

تعثر طفلا ويافعا وشابا في الطرقات المظلمة وسقط أرضا، لكنه ظل يقاوم وينهض ليكمل المسير، حتى "تعلم أن الظلام ليس هو سبب السقوط"! إدريس فاتح... الطفل الرابض في أعماق صاحبه يفتح فمه على مصراعيه، فيمد لسانه الصغير في وجه المجتمع الكبير.

وهذه أمارة الـ"فاتح" وقد رسم مسار الذات بأظافره على صخرة الحياة: "مارس تغاييك وستنجح في حياتك. لقد تغاييت أنا كذلك، وتغايي أنقذني من الهزيمة أمام الذين يملكون الأولياء... فلا تحزن يا صديقي... الحب ليس لنا، الحب لمن أحبهم الرب، نحن هامشيون، والآلهة لا تحبنا!".

محمد الخدادي

نصوص الأستاذ إدريس فاتح

النص الأول

قلت قبل أن أكتب السطر الأول من مذكراتي: هل يمكن لراعي غنم أن يحكي عن ذكرياته؟!!

هل سيفهمه الناس عندما يتحدث في عديد مقاطع نصية بلغته البرنوسية (1) الخشنة، التي كان يستعملها مع نعاجه وحمارته؟ هل سيفهم القراء تلك الحوارات التي كان يجريها في مقبرة الدوار مع الموتى وملك الموت؟

حتما هو الهراء عينه، سيقولون وسيمزقون الكتاب، قبل أن ينتهوا حتى من قراءة الصفحة الاولى.
وهل سيصدق القارئ أقوال كاتب "كافر لم يعد يصلي ويصوم"؟!
أنت متدين، فلا تقرأ لي أبدا كل ما سأكتبه، لا تخسر فلسا من جيبك من أجل شراء كتاب كُتِب بلغة
الهواة من طرف برنوسي مقهور يعاني كل أنواع العقد والمشاكل النفسية. اذهب واشتر كتابا دينيا،
سيكون أفضل لك كثيرا من كتابي هذا، سيجعلك تتيه في كل أنواع الكذب والتخيلات غير المجدية في
بيئة لا تعرف عنها أي شيء.

هل ستصدق مثلا أنني التقيت بالله في جامع لملايك على قمة جبل هسكورا (2)؟ هل تدرك مدى
خطورة الجن الذي روضته في مقبرة سيدي يوسف؟ هل تستطيع تخيل شخص يلتقي مع كل الأموات
في مقبرة المالحة ويكلمهم واحدا واحدا، ولا يخشى أبدا؟...

سيد المالحة

جبل هسكورة وجامع الملايك



ضريح الشيخ زروق



عزيزي القارئ، هل سبق لك أن رأيت سيدي
أحمد زروق (3) في حلمك يخبرك بمستقبلك؟ أنا
فعل معي ذلك. هل لاحظت إذن أن كل ما كتبت له
الآن لا يقدم لك شيئا؟!
لذا أطلب منك أن تخرج وتكمل طريقك في اتجاه
مقهاك المفضلة، فثمن الكتاب يساوي ثمن نصف
دزينة من كؤوس الشاي. من الأفضل إذن؟!!

النص الثاني

سأكتب كي تقرأ لي أنت الراعي الصغير، وقد جئت لتتجسس علي عندما كنت يوما داخل جامع
لملائك... اعتقدتني ساحرا جاء ليخرج الكنز من المحراب...

يا صديقي، أنا في العمق راع مثلك، فلا تخف، ولا تُشكك... جئت فقط لأعرف مكان الله والشيطان
والملائكة... أنا مسلم مثلك.

أكتب لك، أنت الذي تمشي في الغيس حافي القدمين، وتشعر بآلام في ظهره كل مساء وفي الليل...
تلعن واقعك الذي لعنته قبلك... لن تغير اللعنات أي شيء، اعترف بواقعك وعش حياتك.

أكتب لك، أنت الذي ترعى الاغنام في المقابر ولا تخشى أبدا العذاب، الذي يتمثله سكان الدوار من
أجلك. رعيت الغنم قبلك ولم يعذبني الرب أبدا... فلا تخف يا صديقي.

أكتب لك، أنت الذي مارست الجنس على كل حيواناتك الأليفة، شعرت بالذرة في البداية، ولاحقا أنبك
ضميرك ولعنت نفسك.

لا يا صديقي، لقد فعلت الصواب، فأنا فعلتها قبلك وأفتخر بالتجربة (مع اعتذار افتراضي للحيوانات
موضوع الاكتشاف الفضولي). وكثيرون يتمنون فعل ذلك ولا يستطيعون.

أكتب لك، أنت اليتيم الذي فقدت والدك أو والدتك. أقول لك لا تثق بأحد، والذين عليك أن تثق بهم
غادروك إلى الأبد. في مواقف الشعور بالفقدان، مارس تغايبك وستنجح في حياتك. لقد تغابيت أنا
كذلك، وتغابي أنقذني من الهزيمة أمام الذين يملكون الأولياء... فلا تحزن يا صديقي.

أكتب لك، أنت الذي كنت تجلس في نهاية الصف داخل القسم، تحلم بالصدقة والحب مع زميلتك في
الفصل، وتكتب اسمها بقلم رصاص على طاولتك، دون أن تجرؤ على ترجمة أحاسيسك إلى واقعك.
كنت مثلك تماما... أنقذت نفسي بالاستمناء، وأنهيت عذاب التمني. مارس أنت أيضا عاداتك وأنه كل
معاناتك.

الحب ليس لنا، الحب لمن أحبهم الرب، نحن هامشيون، والآلهة لا تحبنا!

أكتب لك، أنت الذي كنت تدخل رأسك داخل خزانة الكتب لما كنت تدرس بالقسم الداخلي، أعرف أنك
كنت تأكل قليلا من الخبز اليابس، وبضع سمكات جئت بها من منزلك، وتتمنى ألا يراك أحد. أنا كذلك
تمنيت ذلك سابقا. أنا مثلك.

أكتب لك، أنت الذي تأخذ دوابك أو منجلك أو شبكتك أو فأسك، وكل أدوات تعبك من المنزل كل
صباح. تتعب كل اليوم ولا تعود إلا في الظلام. عرقك أقدر قيمته جيدا، كذلك فعلت أنا، أتعبني العمل،
ولعنت كل من في الأرض والسماء، وسيعذبني الإله على كل لعناتي، حسب ما يعتقدون.

سأكتب لك أيها اللص الصغير في الدوار، أعرف أنك تسرق الفقوس والرمان والبرقوق... سرقت أنا كذلك، وأعرف متعة اللصوصية. قلها إذن ولا تخف، قل إنني سارق صغير، لا أطور مثلكم أيها اللصوص الحقيقيون.

لا تلم نفسك أبدا، ولا تندم على أفعالك.

اكتب لك إذا كنت تشبهني... إذا كنت تصلي فقط يوم عيد الأضحى، إذا كان أسفل قدميك مشققا، إذا كنت ترعى هذا الصباح الأغنام، وتستمتع بلعب خروفك الوديع، إذا سبق أن زرت جامع لملايك، أو مارست العادة السرية داخل المقابر... أنت مثلي، وسأكتب لك.

النص الثالث

انتخابات بطعم الهزيمة

نصحتني والدتي ذات يوم قائلة: يا ولدي، عليك أن تصوت في الانتخابات. وللزيادة في التوضيح والإقناع أضفت: هي انتخابات سيدنا، ومن حق جميع الرعايا أن يدلوا بأصواتهم في صناديق الاقتراع.

كانت والدتي حينها توصيني بأن أكون مواطنا مخلصا لدينه ولحاكمه ولأحزابه ولوطنه. أرادت أن أكون حاملا لمواطنة بلا مقابل، هي عزيمة والدتي في أفكارها وتوجهاتها، كانت كذلك سابقا. والدتي مسجلة قديما في لوائح الانتخابات، تصوت منذ زمن، على المحليين وعلى المرابطين بالعاصمة، تذهب على الأقدام في الحر الشديد من أجل أن تضع ورقة تحمل لونا أو رمزا في صندوق الأمل، تظهر النتائج وتعلم والدتي من الفائز، وبعدها تنهي حديثها عن الانتخابات.

والدتي مواطنة لها زوج متوفى وأيتام، ترعى الغنم مرات، وتقوم بأعمال المنزل مرات، وتزاول أنشطة فلاحية أحيانا. وتجمع حطب الوقود من جنان الزيتون في دوارنا، لها دراهم معدودة لا تكفيها لشراء كل الحاجيات. تطلب ربها دوما ولا تطلب شيئا من النظام الحاكم هناك من العاصمة. ربما تعرف أنها مواطنة من الدرجة الأخيرة، لذلك لا تأمل شيئا يأتيها من هناك.

مرة، وهي تضحك، قالت بلا شعور: تخيل يا ولدي أن يأتي الحاكم عندنا، سنستقبله ونطعمه ونطلب منه كل شيء دفعة واحدة، لأنه لو جاء مرة لن يعود بعدها إلى هنا أبدا.

والدتي يواجهها العنف بلا رحمة وتقابله دوما بالابتسامة. الرب يعاقبها، لكنها تصلي صلواتها وتطلب منه الرحمة والمغفرة والثواب وحسن الخاتمة. السماء تفرض جفافا على الدوار والقبيلة،

لكن يأتي المطر قليلا أو كثيرا، فتقول والدتي: يا ربي أعطها لينا على قَد النفع.

سلطة حاكمة هي كذلك ديكتاتورية كديكتاتورية الرب والسماء، ومع ذلك فالوالدة تدعو للحاكم بأن يطول عمره ويبعد عنه كل المخاطر داخليا وخارجيا، تصوت في الانتخابات وهي مدركة ألا أحد من الناجحين سيمنحها مكسبا أو يحقق لها غرضا. لا يهملها كل ذلك.

كبرت أنا وبدأت صف المواطنين الصادقين، تخاطبني بطريقتها الخاصة: يا ولدي، أنت المتعلم والعارف، أنت الذي يجب أن ترشدنا.

أدرك وجهتي، عرفت الصواب والخطأ (أو هكذا زعمت لنفسي)، وظلت والدتي تدعوني للانضمام إلى الصواب، أنت من عليك أن تحفزنا للتوجه إلى صناديق الاقتراع... أدها تتكلم كثيرا، لا أتدخل أبدا لتغيير توجهاتها.

في وقت سابق، لما كنت في مرحلة التعليم الثانوي، أخذنا نبلور قليلا من أفكارنا، نحن الهامشييين في القسم والثانوية، نحن الذين وصلنا إلى مرتبة هي أدنى من مرتبة الآدميين. وضعنا هذا سيقودنا إلى الكفر المواطنين، إلى الكفر الديني والماورائي، أخذنا تدريجيا نزعج بعضا من الأساتذة، خاصة مدرسي الاجتماعيات والفلسفة. جرأتنا كانت ضعيفة والأستاذ سهل عليه قمعنا وإسكاتنا. لقد حُرِمنا من الإدلاء بأصواتنا في أول اختبار للديموقراطية، قبل وصولنا سن التصويت في صناديق القمامة. لما بلغت الثامنة عشرة من العمر، كانت ست سنوات من القسم الداخلي كافية لأن أنحرف بتوجهاتي صوب الطريق التي أنا عليها الآن، حكمت على نفسي بالأناخرط في صفوف المواطنين المخلصين للماورائيات وللسلطة الحاكمة، لم أسجل اسمي أبدا في صفوف المؤمنين ولا في صفوف الناخبين، بقيت بعيدا عن كل من يمارس علي عنفا. نعم، أنا مستسلم للجميع، للماورائيات وللسماء وللسلطة الحاكمة.

نجح حزب وخسر الآخرون، وتوالت العمليات. وبمرور الأيام والسنين أخذت والدتي تغير بعضا من أفكارها، ففي حواراتي معها، أصبحت تميل لجهتي من ناحية الكفر بالحاكم، أما الرب، فهي مؤمنة بطريقة فيها كثير إخلاص وحب، وقد أنضم لصفها ذات يوم. كفرت بالانتخابات، بدأت تعرف واقع السياسة بالبلد محليا وإقليميا ووطنيا. صدقت حين قالت لي وهي مرتاحة كعادتها: كلهم يكذبون علينا يا ولدي، والله وخطأتنا صحتنا واحد لا عرفنا.

قبلت رأسها وقلت لها: الآن يا أمي لن تتعبي في الطريق إلى مكتب التصويت البعيد.

النص الرابع

رغم "الكفر" يا والدي، سأظل أجتهد من أجل ألا أنسى تلك السور القرآنية القصيرة، أنساها دوما لكني مجبر من أجل تذكرها، في كل وجود لي بالمقبرة المدفون فيها أنت، سأكون مرغما على قراءة ذلك الذكر، قيل لي إن القرآن المقروء على روح الميت يجنبه عذاب القبر.

يا والدي، رغم أنك عذبتني بان أوجدتني في هذه الدنيا، لن أتركك أنت تتعذب، سأدعو لك دوما بالرحمة والمغفرة، وسأتلو على روحك الطاهرة ما تيسر من ذكر قيل لي إنه حكيم، أنا "الكافر" يا والدي.

النص الخامس

في ضيافة الموتى استقبلني كبيرهم، لم أكن على استعداد لأن أجد عالمهم، لكن في غفلة من أمري وجدتني معهم. كان كبيرهم جالسا والموتى الآخرون واقفون. عجيب أمرهم هذا، في وقوفهم لا يتعبون. وقفت معهم برهة وشعرت بعياء شديد، طلبت الجلوس فوافق الجميع على جلوسي. عرفوا من خلال ملامح وجهي الدنيوية أنني لست مستعدا للبقاء واقفا مثلهم، أنا الدنيوي الضعيف. منحوني ماء فشربت، جاؤوني بأكل فأكلت، شرابهم وأكلهم ليس كمثل شرابنا وأكلنا. أسمعوني موسيقى ورقصوا أمامي، أعجبنى وضعهم. كبيرهم لا يقوم من مكانه، جالس يضحك تارة وأخرى يبقى متجمدا في مكانه، كأنه ذلك الحي الذي يريد الموت. هو ميت في أصله، أنا الحي معهم. قبل المجيء عندهم، كنت راعي غنم فوق أجسادهم في تلك المقبرة. نعاجي عرفت قبورهم، وطأت أقدامي فوق بطونهم المتحلبة. في الشتاء ولجت مقر كبيرهم، في مرضي، علقت ألياف دوما في سقف بيت الضريح، لعل الشفاء يأتي من أحدهم. قيل لي إن كبيرهم يعالج أمراضنا. سألوني: أتعرف لماذا جئنا بك إلى هنا؟ أجبت بلا، فقال أحدهم: سنعاقبك على كل أفعالك فوق بقايا أجسادنا. أنت شرير دنيوي تزعجنا مع نعاجك، وإن مت لن تجد مكانا لك بيننا، نرفضك ونرفض مقامك بيننا، وطبعا سنعاقبك.

سألت: ماذا فعلت لكم يا سادتي المتحللين؟ فقالوا بصخب جماعي كصوت طرب أندلسي قادم من سلا أو غرناطي آت من وجدة: مارست العادة على قبورنا، بلت علينا، وتغوطت أيضا. انت خبيث لعين يا دنيوي يا ضيع. دنست قبورنا وأتعبت أرواحنا. قلت: وما هي وضعيتكم داخل هذه المقبرة؟ امنحوني هويتكم أيها السادة الأموات؟

قالوا جميعا وكبيرهم ساخط: لم تتحلل أجسادنا بعد، أرواحنا في المقابر ترقد، نشعر بك وأنت تمشي

فوقنا، نلحظ كل تصرفاتك. يا وضع، نحن أحياء في مقبرتنا، أنت الميت في دنياك.

هددني أحدهم بالضرب، لكن كبيرهم اعترض: اتركه، لا تلمسه أبدا.

شكرته على تسامحه وأخذت أبكي بصوت عال وهم يضحكون. بقيت أبكي حتى جعلتهم يبكون معي. الأموات يبكون مع الأحياء.

في تلك الاثناء جاءت شابة جميلة بصينية شاي وكؤوس مذهبة وبراد من فضة، ونعناع منفصل لم أر من قبل خضرة كخضرتة. نسيت كل شيء وركزت عليها، أردت في خيالي أن أخطفها وأهرب، لكن تراجع.

شربت الشاي على مهل، ربما أخذت أرتاح معهم، كأسا أولا ثم ثانيا وثالثا. شربت عديد كؤوس، وسألت كبيرهم: هل هناك حي معكم؟ قال: لا، فقلت: وهل يمكن للميت أن يخرج إلى الدنيا مرة ثانية؟ قال: لا.

أردت أن أقيم علاقة حب مع الأموات في دنياي، لكن ذلك مستحيل حسب كبيرهم، طلبت منهم أن أبقى معهم ليغفروا لي أولا ويمنحوني فتاة الشاي والنعناع الأخضر. رفضوا كل مطالبي. طلب كبيرهم من الجميع المغادرة، أبقاني معه وحدي وقال: يا إدريس، هذه المرة سامحناك على أخطائك في مجالنا، وأطلب منك ألا تعود إلينا أبدا، ثم سألت ليتقين: هل اتفقنا؟ قلت: نعم، قال: هيا، غادر بسرعة ولا تنظر خلفك أبدا.

قذفوني ربما، أو ربما استعملوا وسيلة أخرى للرمي بي خارج عالمهم. وجدت نفسي أنفص غبارا كان على رأسي، رأيت قبرا ينغلق، ربما خرجت منه.

نفضت كل الغبار ورن هاتفني بعدها، سمعت صوتا يخاطبني: يا إدريس يا إدريس... وانقطعت المكالمة. كان صوتا نسائيا.

النص السادس

ريق في يده، لعله يستعد لممارسة عادة ليست جهرية، قال صديقه: وما العيب فيها؟ فرد: أرجوك، دعني أنهى فصولها وسأخبرك فيما بعد بلذتها. صدقتي، حتما ستمارسها.

النص السابع

مات بغلنا يا ولدي والحمارة مازالت صغيرة، زرنا بعيد عن منزلنا، وببدرنا من المحصول فارغ. يا ولدي، اذهب عند جارنا وقل له أن يعيرنا بغلته وشبكته، وطمنه بأننا سنرجع له الامانة سليمة

والزرع معها، وإن رفض قل له: لا إشكال يا عمنا.
لكن لا تنس أن تسرق بغلته، فالزرع يجب أن يصل بيدرنا، وأمك يا ولدي تنتظر قمحا صافيا وجعجة
رحى... بطحين.

النص الثامن

غابة أغرم وشعشوع



في جبل شعشوع (4)، سأخبر
الجميع أن الأرض ليست مسطحة
أبدا، وسيتهمني الجميع بالزندقة،
وقد يضربني بعضهم، لكن لن
أترك الجميع يلحق بي، ففي طريق
العودة إلى الديار سأكون قد
وصلت إلى غابة أغرم، وهناك
أعرف تفاصيل المكان، كهوف
سبق لي دخولها ولم يسبق لهم
ولوجها...

أما إن وصلت إلى جامع لملايك على قمة جبل هسكورا، فلن أترك أحدا يهزمني، هناك أملك كل
مفاتيح الانتصار بأفكاري، علمي يرفرف من زمان، غرست عموده لما صعدت ليلا والجن يتبعني،
والشيخات يرقصن على إيقاع أغنيات بدوية في حفل زفاف قروي.

النص التاسع

ناداني في المنام قائلا: يا أبي العزيز، هل بإمكانك أن تخرجني من هذا العدم المخيف؟
أجبت: ليس هناك يا ولدي خوف أكبر من الخوف الذي أعيشه أنا في الدنيا.
قال: ولم كل هذا الخوف يا أبتاه؟
قلت: أخاف يا ابني الغالي من وهم قوة شديدة العقاب، ومن سماء لا تمطر، ومن حاكم لا يعدل، ومن
جسد لا يستطيع أن يستوعب تفكيري، ومن شعب ينافق، ومن غد مظلم، ومن ظلام ينتشر...
أخاف يا ولدي أن يبكي أحد في جنازتي، أخاف أن يتم دفني، وبعد ذلك يأكلون الكسكس في جنازتي
ويضحكون ويتحدثون عني بالسوء. أخاف أن يسجنوني بعد موتي.

قال ودمع يسيل من عينيه: أرجوك يا والدي، اسمح لي، لم أكن أقصد أن أجعلك تقول كل هذا الكلام، لقد تبين لي حسن الوجود في العدم، ولن أطلب منك أي طلب مستقبلا. تحياتي والدي الغالي.

النص العاشر

لا أعرف أين كنت أنت آنذاك، لكن دعني أخبرك عن وضعي في ذلك التوقيت. لقد كنت عائدا بنعاجي إلى الزريبة التقليدية، فوجدت خمسين سنتيما في الطريق، فرحت فرحا شديدا وتمهلت في السير وأنا سعيد... وفي الليل، أتعرف يا صديقي أين كنت أنا؟ لقد قصدت عرسا بعيدا، وهناك اشتريت قنينة خمر بخمسين سنتيما وشربت كؤوسا حتى وجدت نفسي مخمورا. ساعتها، جسدي مات وروحي سألت عنها السماوات، كان كيان ثالث على قيد الحياة يعطيني كينونتي. هو بين الجسد والروح... كنت مسلما.

النص الحادي عشر

أقسم أنني صليت الجمعة في جامع لملايك، شربت أيضا هناك اللبن وأكلت خبزا، ونظرت بعيدا فوجدت أنني سأقطع مسافة طويلة للعودة إلى باب جنان. طرحت سؤالا على نفسي: من سيساعدني على العودة: الصلاة أم الخبز أم اللبن؟

النص الثاني عشر

لما نزل المطر كثيرا هذا الصباح في قاسيطة (4)، وجدت نفسي مضطرا قليلا لتغيير بعض من موافقي العقدية، لكن مجيء صديق له نفس توجهاتي أنقذني من السقوط في الرذيلة الفكرية وهي تمطر. تذكرت فولنا وجلبنتنا وشعيرنا وقمحنا وبقولنا وخرشوفنا وقسبرنا وربيعنا في البرانس. كلمت السماء وكلمتني، قالت إنها تمطر هناك بأرضنا الأم أيضا، الغيوم شاسعة المساحة هذه المرة، والماء لامس أرضا جاعت وعطشت مرارا.

دخلت المقهى في العاشرة صباحا، وبعض من ماء نزل علي فبلل حذائي وسروالي، لكن لم يكن الببل كثيرا كي يستفزني كما كان يستفزني أيام التسعينيات عندما كنت عاجزا عن التصدي، وكنت بلا مظلة أرعى الغنم تحت المطر، أو أنطلق نحو المدرسة على بعد كيلومترات. كان المعلم يحزنه وضعي، ولا علم للرب أبدا بتعاستي.

شيئا فشيئا أخذ البرد يتسلل إلى قدمي، حذاء غافلي وسمح للماء بالنفاذ إلى الجوارب، والجلوس في

المقهي أصبح يتعقد. ذكرت صديقي بوضعي واتفقتا على التوجه نحو السوق الأسبوعي للبحث عن الحل والبديل، تحركنا والمطر يقصفنا.

في النهاية تمكنت من شراء "سبردينة"، تستطيع أن تكون سدا منيعا تحميني، بينما عجز الحذاء الذكر عن الحماية.

النص الثالث عشر

كنت ماشيا في الطريق إلى اترابية (5) فوجدت كبشين يتناطحان من أجل الفوز بنعجة. تقدمت قليلا فرأيت من بعيد كلابا تتصارع حول من يصعد على كلبة. شاهدت حتى الحشرات تتقاتل فيما بينها... لما تكررت مشاهد القتل والصراع والعدوان قلت في نفسي: ولم كل هذا؟ هل يجب أن يكون العدوان حتى يفوز طرف بالأكل أو الجنس أو الحماية؟ لم الحيوان هكذا؟

لما قفلت راجعا من السوق بعدما اشتريت مقلاعا، بدأت أطرح على نفسي سوؤالا، أو هي أسئلة: لماذا يقتل الإنسان أخاه الإنسان؟ لماذا يقتل المسيحي المسلم، ويقتل البوذي المسلم، ويقتل المسلم المسيحي؟ لماذا يقتل اليهودي المسلم؟ لماذا يتقاتل الهندوس مع المسلمين؟

لماذا يتواجه الدين مع الدين؟ لماذا يقصي المعتقد المعتقد؟ لماذا يتصارع الرب مع البشر؟ لماذا لا يطيع البشر الرب؟ لماذا تمرد الشيطان على الإله؟ لماذا خلق الرب جهنم؟ لماذا العذاب الأليم؟ في حدود الثانية عشرة من يوم الثلاثاء وصلت الى عين المالحة، فوجدت طيوراً تشرب ماء، استخدمت مقلاعي فأسقطت حسونا جميلا حتى انفصل رأسه عن جسده فصرخت فرحاً...

لكن سرعان ما طرحت سوؤالا على نفسي: ما ذنب الطير حتى أعذبه هكذا؟ أنا رب شرير، أطلب المغفرة من باقي الطيور.

النص الرابع عشر

كل صباح كنت أطلب من ربي أن يعالجني من كل مرض يصيبني، كنت ألح عليه كثيرا حتى يمنحني حماية خاصة لأسفل قدمي، فقد كانت التشققات تزعجني كثيرا وتجعلني عاجزا عن المشي. لم أكن ضعيفا لأقول لنعجتي "الطاغية" لا تهربي هذا الصباح إلى حقول الدرة التي تربك عملي في شهر غشت من كل صيف، ولم أكن أشكو وضعي لأي عبد من عباد الله، كان الرب في السماء هو الوحيد الذي أرسل له أهاتي ومعاتاتي، لكن لم يكن يستقبل صراخي وصيحاتي، كل كلامي المونولوجي كان يضيع في أنفاسي أو ينزلق في منحدرات تلال الرعي. ربما لم تصعد أبدا رسائلي إلى السماء.

صندالتي كانت تنقطع بسرعة لتلامس قدمي أرض وتربة البرانس، كان الحوار شاقا يسيل دما، وفي
ملاعب الكرة لعبت حافي القدمين، مما عقد الوضع أكثر وأثبت شقوفا تركت بصمات، كلما نظرت
إليها أستطيع أن أروي تفاصيلها من الذاكرة.

النص الخامس عشر

كان قبر من قبور المقبرة مفتوحا، ولما أردت إغلاقه سمعت صوتا يقول: يا ودي وسع؟ فهربت.

النص السادس عشر

في عطلتي غرست شجرة تين وأفرغت عليها سطل ماء، وعاودت الإفراغ كل يوم. لم أقل بسم الله
وأنا أغرسها كعادتي القديمة في عمليات الغرس، لكن تمنيت لها من أعماق قلبي عمرا مديدا وحياة
سعيدة.

ستكبر حتما وسأكبر، ستنتج ثمار الباكور والكرموس، إذا اعتنيت بها وأطعمتها ذبالا وسقيتها ماء.
ستصبح عملاقة وستورق في الربيع وتسقط أوراقها خريفا. ستنتج ظلا وفيرا في يوليوز وأغسطس،
لأجلس تحتها وأنظر إلى أغصانها. سأكون في خريف العمر، وهي في العمر الزهي، لن أتزوجها،
لكن عشقي لها لن يكون مشروطا. ولن أتكى أبدا على أسفلها كعادتي الخبيثة مع باقي
"الشجرات"...

النص السابع عشر

في مقبرة عندنا تسمى سيدي يوسف وفي أمكنة عديدة بدوارنا ودواويرنا المجاورة، كان الجن يخرج
ليخيف الناس في تحركاتهم الليلية. سمع أناس من قبيلتنا أصوات حركات جن وعفرات، وتوسلوا
لربهم أن يحميهم، وأكملوا طريقهم سالمين.

أنا كذلك أخافني "الخيال" والجن كثيرا، فكلمنا مررت ليلا من تلك الأمكنة، يرتعش جسدي، وتصيبني
حالة هلوسة ووساوس. تحدث الريح أصواتا وظل القمر يخلق أشياء... وفي كل ذلك كنت أتخيل
عفريتا طالحا يتبعني ليلقي بي بعيدا عن طريق حفل العرس الذي أنا قاصد إليه. توقفت مرارا لأعرف
الحقيقة، لكن لم يتبين لي شيء مما كنت أتصوره، خوفا كان يزعجني لكنه لم يمنعني مطلقا من
التخلف عن رقصات شيخات أعراسنا.

واجهت صعوبات الطفولة بكثير من تدين، كنت مسلما حافظا لبعض من آيات القرآن وسمعت أن

الجن يخشى كلام الله، لذا تراني كلما خفت ليلا أتلو بعضا من سور قصيرة وآيات. كنت أرتاح على إثر ذلك وأشكر ربنا الذي يساعدنا على مقاومة هذه المخلوقات من الطالحين والطلحات... مشيت ومشيت لوحدي في الليل على ضوء القمر، وفي غيابه لم أكن أحمل مصباحا ضوئيا ولا أي شيء ينير لي طريقي في الظلام. تعلمت كيف أواجه صعوباتي. شوك الزرنيج دخل ودخل في قدمي حتى يبس كل القدم. تعثرت في الطرقات وسقطت أرضا، لكن كنت أقوم دوما وأكمل المسير حتى تعلمت أن الظلام ليس هو سبب السقوط. الجن خرج وخرج وخرج... حتى تعب من الخروج وعاد إلى عالمه إلى الأبد. في الليل أيضا تعلمت أن أعد النجوم بلا خوف...

والآن، وفي الثلاثين، ما زلت أمشي وحدي ليلا. كبرت وكبرت أفكارني، لم أعد أعترف بوجود مخلوقات اسمها الجن أو العفاريت. لم أعد أحفظ أي شيء من الكتب الدينية، وحتى الإله تغيرت نظرتي إليه... هو عظيم خالق لهذا الكون، ليس له أي دخل في الخوف الذي كان يصيبني وأنا في طريقي إلى أعراس السفح الشمالي أو الشرقي أو الجنوبي أو الغربي لجبل هسكورا البرنوسي.

هوامش

- (1) - نسبة إلى قبيلة البرانس الواقعة في مقدمة الريف، شمال مدينة تازة، وهي أمازيغة تعرب لسان أهلها جزنيا بداية من عهد المرينيين في القرن 14.
- (2) - جبل هسكورا: مرتفع في الجنوب الشرقي لقبيلة القبيلة البرانس، يشكل سفحه الجنوبي جزءا من الحدود مع قبيلة مكناسة الشرقية، وهو عار من الغطاء النباتي بسبب النشاط البشري، وتوجد في قمته بناية منعزلة عن التجمعات السكنية تسمى محليا "جامع لملايك". هذه الأخيرة عبارة عن سور دائري غير مرتفع له مدخل ومكان للزيارة ووضع الشموع. خلال مرحلة تأخر سقوط المطر، غالبا ما كانت الساكنة تلجأ إلى جامع الملايك من أجل طلب الغيت...
- (3) - أحمد زروق: القطب الصوفي المعروف (1493-1442)، يتحدر من قبيلة البرانس وله زاوية هناك يقام حولها موسم سنوي.
- (4) - جبل شعشوع: مرتفع يشكل جزءا من الحدود الشرقية لقبيلة البرانس مع قبيلة كزناية الناطقة بأمازيغية تريفيت. (مصطلح الجبل في بلاد البرانس يستعمل تجاوزا، وليس بالمعنى الجغرافي الدقيق، إذ يتعلق الأمر في حالات كثيرة بمرتفعات وتلال).
- (5) - قاسيطة: المدينة الصغيرة في إقليم الدريوش، وتسميتها من الإسبانية (casita)، أي بيت صغير.
- (5) - أثرايبة: فخذة من قبيلة البرانس، وهو اسم لواحدة من الجماعات القروية بالمنطقة، يقع فيها سوق يلتئم يوم الثلاثاء.